



مقدمة:

تظهر قوة الإيمان في النكبات لا في الركعات، وعن الرزايا لا في الزوايا، قال الحسن البصري: (استوى الناس في العاقبة فإذا نزل البلاء تباينوا) صيد الخاطر/ 216

لقد شاء الله تعالى بحكمته ورحمته أن يرسل على عباده هذه الموجة العاتية القاسية من الثلوج والبرد والصقيع، ليختبر بها صبرهم وجهادهم، (ولَنَبْلُونَكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُو أَخْبَارَكُمْ) محمد 31 حتى يرفع درجاتهم في الجنة، قال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْعِبْدَ إِذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَنْزَلَةً، لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ إِبْتَلَاهُ اللَّهُ فِي جَسَدِهِ، أَوْ فِي مَالِهِ، أَوْ فِي وَلَدِهِ) قال أبو داود: زاد ابن نفیل: «ثُمَّ صَبَرَهُ عَلَى ذَلِكَ - ثُمَّ اتَّفَقَ - حَتَّىٰ يُبَلِّغَهُ الْمَنْزَلَةُ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى» رواه أبو داود وصححه الألباني/ 3090

فالله هو الذي يبسّط هذه السُّحبَ في السماء كما يشاء، (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثْبِرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ) الروم 48

وهو الذي يصيب بالبرد من يشاء ويصرفه عنمن يشاء، (وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ) (النور:4)

فلا راد لأمره سبحانه، ولا معقب لحكمه، لا يسألُ عما يفعل وهم يُسألون.

وهو سبحانه أرحم بعباده من الأم بولدها، ولو شاء ما ابتلاهم، ولكنه سبحانه يبتلي من يحبُّ ومن في إيمانه صلابة ليضاعف أجورهم ويکفر عنهم من خطاياهم، روى ابن حبان وغيره من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الناس على قدر دينهم فمن ثُخنَ دينه اشد بلاؤه ومن ضعفَ دينه ضعفَ بلاؤه وإن الرجل ليصيّبُه البلاء حتى يمشي في الناس ما عليه خطيئة). رواه ابن حبان وغيره وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير / 993 – 486

عناصر الخطبة:

- 1 - الصبر على البلاء.
- 2 - البرد وذكرى الآخرة.
- 3 - من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل.

4- إن تكونوا تالمون فإنهم يألمون كما تالمون.

5- الثلج والبرد والرياح من أسباب النصر.

6- الرضا عن الله: (لا تكتب اسمك في سجلات الخائبين).

7- تحمل البرد في طاعة الله مما يرفع الله به الدرجات، وما يختص فيه الملائكة.

١- الصبر على البلاء:

ما مثل البلاء إلا كمثل الضيف ينزل عليك، فإذا رحبت بقدومه وفقدت حواجه مقدماً له قرئ الصبر، دون أن يشكو اللسان ضجراً، أو ينقلب القلب تسخطاً، فيا لذة مدائحك على لسان الملائكة، ويا فرحة تسجيل وصفك بالكرم والجود في صحفهم،

وما أصدق قول القائل:

الصبر مثل اسمه في كل نائبٍ *** لكن عواقبه أحلى من العسل

ومن هذه العواقب:

- (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) آل عمران 146

- (إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) الزمر 10

- (وَلَنَجِزِّيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) النحل 96

- (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) البقرة 153

- روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (...وَمَا أُعْطَيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبَرِ) البخاري / 1469

- وفي حديث ابن عباس قال صلى الله عليه وسلم: (وَاعْلَمُ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبَرِ، وَأَنَّ الْفَرَاجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) المعجم الكبير للطبراني / 11243

- روى البخاري من حديث عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذْى، شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا، إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّنَاتِهِ، كَمَا تَحُطُ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا) البخاري / 5648

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماليه حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم، وقال الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب: حسن صحيح / 3414

- عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَهُ الْخَيْرَ عَجَلَ لِهِ الْعِقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَهُ الْخَيْرَ عَجَلَ لِهِ الْعِقُوبَةُ حَتَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ). رواه الترمذى وصححه الألبانى / 2396

- عن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يُؤْتَى بِأَنْعَمَ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصِيبُهُ فِي النَّارِ صَبَغَةً، ثُمَّ يُعْلَمُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّي . وَيُؤْتَى بِأَشَدَ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصِيبُهُ صَبَغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شَدَّةً قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّي مَا مَرَّ بِي بُؤْسًا قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شَدَّةً قَطُّ) رواه مسلم / 2807

- عن صهيب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» رواه مسلم / 2999

2- البر وذكرى الآخرة:

إن المؤمن ليأخذ من شدة ما يمر به في الدنيا من أحوالها وأذكارها معتبراً لشدة يوم القيمة وكربه؛ فإن كرب القيمة ينسى شدة الدنيا وكربها، (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَانٌ يُغْنِيهِ) (عيسى: 35-37)

روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اشتكت النار إلى ربه ، فقالت : رب أكل بعضي بعضًا ، فأنذن لها بِنَفْسَيْنِ بِنَفْسٍ في الشتاء ونَفْسٍ في الصيف ، فأشد ما تجدون من الحر ، وأشد ما تجدون من الزمهرير .) (البخاري/ 3260، ومسلم/ 617)

هذه النار عندما اشتكت إلى خالقها، والشكوى كانت من أنه قد أكل بعضها بعضاً، فكيف بالذي في داخلها؟ وكيف بمن يعذب فيها؟ وكيف بمن حكم الله عليه الخلود فيها؟ نسأل الله اللطف والسلامة.

قال تعالى: (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاء وِفَاقًا) (النبا 24-25).

وقال تعالى: (هَذَا فَلَيْذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ) (ص: 57)

قال ابن عباس: "الغساق": الزمهرير البارد الذي يحرق من برده، وقال مجاهد: هو الذي لا يستطيعون أن يذوقوه من برده، وقيل: إن الغساق: البارد المتنـن" أجارنا الله - تعالى - من جهنـم بفضلـه وكرمه.

3- من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل:

إن المؤمن طالب جنة، ولا يرضي لما يبذل ثمناً دون الجنة، وهل تناول الجنة بالراحة؟ إن النعيم لا يدرك بالنعم

قال تعالى: (أَمْ حَسِبُتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ) آل عمران 142

خمسة في الجنة تنسى آلام العمر:

- عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يُؤْتَى بِأَنَّعَمَ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبَغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّي وَيُؤْتَى بِأَشَدِ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبَغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةً قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّي مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ) (رواية مسلم / 2807)

4- إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون:

عن حذيفة رضي الله عنه: (أَنَّ النَّاسَ تَفَرَّقُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَلَةَ الْأَحْزَابِ فَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا فَاتَّانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا جَاثِمٌ مِنَ النَّوْمِ فَقَالَ يَا ابْنَ الْيَمَانِ قَمْ فَانطَلَقَ إِلَى عَسْكَرِ الْأَحْزَابِ فَانظَرَ إِلَى حَالِهِمْ قَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِي يَعْتَكُ بِالْحَقِّ مَا قَمْتُ لَكِ إِلَّا حَيَاءً مِنَ الْبَرِدِ، قَالَ انطَلَقَ يَا ابْنَ الْيَمَانِ فَلَا يَأْسَ عَلَيْكَ مِنْ بَرِدِ وَلَا حَرِّ حَتَّى تَرْجَعَ لِي فَانطَلَقْتُ حَتَّى أَتَيْتُ عَسْكَرَهُمْ فَوُجِدْتُ أَبَا سَفِيَّانَ يُوْقَدُ النَّارَ فِي عَصَبَةٍ حَوْلَهُ وَقَدْ تَفَرَّقَ الْأَحْزَابُ عَنْهُ فَجَئْتُ حَتَّى أَجْلَسَ فِيهِمْ فَحَسَّ أَبُو سَفِيَّانَ أَنَّهُ قَدْ دَخَلَ فِيهِمْ مِنْ غَيْرِهِمْ فَقَالَ لِي أَخْذُ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِيَدِ جَلِيسِهِ قَالَ فَضَرِبَتُ بِيَدِي عَلَى الَّذِي عَنْ يَمِينِي فَأَخْذَتُ بِيَدِهِ ثُمَّ ضَرَبَتُ بِيَدِي عَلَى الَّذِي عَنْ يَسَارِي فَأَخْذَتُ بِيَدِهِ ثُمَّ قَمْتُ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ قَائِمٌ يَصْلِي فَأَوْمَأْتُ إِلَيْهِ أَدْنُو فَدَنَوْتُ حَتَّى أَرْسَلَ عَلَيَّ مِنَ الثَّوْبِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ لِيُدْفَئِنِي فَلَمَا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ يَا ابْنَ الْيَمَانِ أَقْعَدْتُ مَا خَبِرُ النَّاسِ فَقَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ أَبِي سَفِيَّانَ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فِي عَصَبَةٍ تُوْقَدُ النَّارَ وَقَدْ صَبَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَرِدِ الَّذِي صَبَّ عَلَيْنَا وَلَكُنَا نَرْجُو مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ) (رواية الهيثمي في مجمع الزوائد / 139 ورجاله ثقات).

إن الذي أصابنا من الثلج والبرد والصقيع قد أصاب عدونا مثله، فهم يألمون كما تألم، لكننا نتفوق عليهم بأن الله بعثه رحمة

لنا، وبلاءً ونقطة عليهم.

5- الثلج والبرد والريح من أسباب النصر:

إن الثلج والبرد والمطر والريح جند من جنود الله تعالى، يرسله على المجرمين فيعاقبهم ويهزّهم ويرسله على المؤمنين فيثيّبهم ويبثّهم، فقد أهلك الله عاداً بالريح، بينما نصر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبا، عن ابن عباسٍ: (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَّا، وَأَهْلَكْتُ عَادَ بِالْدَبُورِ») البخاري / 1035، ومسلم / 900

يعلق الدكتور مصطفى البغا على هذا الحديث في شرحه لمسلم فيقول: (نصرت بالصبا): هي الريح التي تهب من مشرق الشمس ونصرته بها صلى الله عليه وسلم كانت يوم الخندق إذ أرسلها الله تعالى على الأحزاب باردة في ليلة شاتية فقلعت خيامهم وأطافت نيرانهم وقلبت قدورهم وكان ذلك سبب رجوعهم وأنهزامهم.

(الدبور) هي الريح التي تهب من مغرب الشمس وبها كان هلاك قوم عاد كما قص علينا القرآن الكريم.

قال تعالى: (فَإِمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْلَمْ يَرَوُا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِبْحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامِ نَحْسَاتٍ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ*) (فصلت 15-16)

أما في غزوة الأحزاب فقد قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِبْحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) (الأحزاب 9)

روى ابن هشام عن محمد بن كعب القرظي قال: قال فتى من أهل الكوفة لحنيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله،رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبته؟

قال: نعم يا ابن أخي.

قال: وكيف كنتم تصنعون؟

قال: والله لقد كنا نجهد.

قال الفتى: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعنافنا.

قال: قال حذيفة: يا بن أخي، والله لو رأينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هوياً من الليل، ثم التفت فقال: "من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم؟ - يشرط له النبي صلى الله عليه وسلم أنه يرجع - أدخله الله الجنة".

قال: فما قام رجل. ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هوياً من الليل ثم التفت إلينا، فقال مثله، فما قام منا رجل.

ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هوياً من الليل ثم التفت إلينا فقال: "من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع - يشرط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة - أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة".

فما قام رجل من القوم؛ من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد.

فلما لم يقم أحد، دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني فقال: "يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم فانظر ما يفعلون، ولا تحدث شيئاً حتى تأتينا".

قال: فذهبت فدخلت [في القوم] ، والريح وجند الله، عز وجل، تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدرًا ولا نارًا ولا بناء، فقام أبو

سفيان فقال: يا معاشر قريش، لينظر أمرؤ من جليسه.

قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معاشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح الذي ترون. والله ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا، فإني مرتل، ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم. ولو لا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى: "ألا تحدث شيئاً حتى تأتيني" ثم شئت، لقتلته بسهم.

قال حذيفة: فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلي في مطر لبعض نسائه مرحل، فلما رأني أدخلني بين رجليه، وطرح علي طرف المرط، ثم رکع، وسجد وإنني لفيفه، فلما سلم أخبرته الخبر، وسمعت غطfan بما فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم) (ابن هشام 2/231)

- ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن سب الريح فعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تسبوا الريح فإنها من روح الله تأتي بالرحمة والعذاب ولكن سلوا الله من خيرها وتعونوا بالله من شرها). (رواہ ابن ماجہ/3727) وصححه الألباني في المشكاة / (1516)

وليحذر العبد من سب الحمى كذلك إن أصيب بها كذلك لأنها من الله تعالى؛ وأنها تحرق ذنوب العبد، وتخفف عنه، فهي خير له ولو أقعدته وأسهرته وآذته، فعن جابر بن عبد الله، أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ أَوْ أُمِّ الْمُسَيْبِ فَقَالَ: «مَا لَكِ؟ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيْبِ تُرْفَزِفِينَ؟» قَالَتْ: الْحُمَّى، لَا يَأْرَكَ اللَّهُ فِيهَا، فَقَالَ: «لَا تَسْبِي الْحُمَّى، فَإِنَّهَا تُذَهِّبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ، كَمَا يُذَهِّبُ الْكِبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ» (رواه مسلم/2575) (ترخيص: تحركين حركة شديدة أي تردد).

- وفي غزوة بد:

أنزل الله المطر فثبت به أقدام المؤمنين فانتصروا على عدوهم، قال تعالى: (وَيُنَزَّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذَهِّبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيُرِيظَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ) الأنفال 11

روى ابن هشام في السيرة عن عروة بن الزبير قال: (بعث الله السماء - وكان الوادي دهساً - فأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه) (سيرة ابن هشام 1/620)

- وفي غزو التتار:

أنزل الله فيه من الثلج والبرد والمطر ما هو على خلاف العادة كما هو اليوم، فكانت هلاكاً على التتار ورحمة للمؤمنين، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

وهكذا هذا العام أكثر الله فيه الثلوج والمطر والبرد على خلاف أكثر العادات، حتى كره أكثر الناس ذلك، وكثنا نقول لهم: لا تكرهوا ذلك؛ فإنَّ اللَّهَ فِيهِ حِكْمَةً وَرَحْمَةً ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ الَّتِي صَرَفَ اللَّهُ بِهِ الْعَدُوَّ؛ فَإِنَّهُ كَثُرَ عَلَيْهِمُ الثلُجُ وَالْمَطَرُ وَالْبَرْدُ ، حَتَّى هَلَكَ مِنْ خَلْيَهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَهَلَكَ أَيْضًا مِنْهُمْ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَظَهَرَ فِيهِمْ وَفِي بَقِيَّةِ خَلْيَهُمْ مِنْ الْحَسْفَ وَالْعَجْزِ بِسَبَبِ الْبَرْدِ وَالْجُوْعِ مَا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ مَعَهُ بِقِتَالٍ ، حَتَّى يَلْغَيَنِي عَنْ بَعْضِ كِبَارِ الْمُقْدِمِينَ فِي أَرْضِ الشَّامِ أَنَّهُ قَالَ : لَا يَبِضَنَ اللَّهُ وُجُوهَنَا : أَعَدْنَا فِي الثَّلَجِ إِلَى شَعَرِهِ ، وَتَحْنُ قُعُودًا لَا تَأْخُذُهُمْ ؟ وَحَتَّى عَلِمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا صَيْدًا لِلْمُسْلِمِينَ لَوْ يَصْطَادُونَهُمْ ؛ لَكِنْ فِي تَأْخِيرِ اللَّهِ اصْطِيَادَهُمْ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ ...) مجموع الفتاوى 28/445

قال تعالى: (فَعَسَى أَن تَكْرُهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) (النساء 19)

إذا استقر هذا المعنى في القلب أورث التسليم الكامل والرضا التام عن الله بما قدره، لأن العبد جاهل كل الجهل بما ينفعه والرب عالم كل العلم بذلك. قال عمر رضي الله عنه: (ما أبالي على أي حال أصبحت أعلى ما أحب أم على ما أكره)

لا تكره المكره عند نزوله *** إن الحوادث لم تزل متباعدة

كم نعمة لا يستهان بشكرها *** لله في طي المكاره كامنة

هذه المحنة لن تدوم طويلاً، فعليك بالصبر أخي المسلم وأختي المسلمة حتى تربح الاختبار ولا ترسب في الامتحان

يا نفس إنما هي صبر أيام *** لأن مدتها أضغاث أحلام

إن الدنيا دار ابتلاء ومن جهل هذا فقد نسي الغاية التي من أجلها خلق، قال تعالى: (لِبِلُوكِمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) الملك 2

ومن جزع وند صبره عند نزول البلاء فقد جنى على نفسه وكتب اسمه بيده في سجلات الخائبين.

الإيمان مقتن بالبلاء، كما قال الراغبي:

(فمن آمن بالله فكأنما قال له امتحني، وكيف تراك إذا كنت بطلاً من الأبطال مع قائد الجيش؟ أما تفرض عليك شجاعتك أن تقول للقائد: امتحني وارم بي حيث شئت، وإذا رمى بك فرجعت مثخناً بالجراح، ونالك البتر والتشويه أتراها أوصافاً لمحاسبيك، أم ثناء على شجاعتك؟!) (كتاب وحي القلم).

فأروا الله من أنفسكم قوة، وارضوا عن الله فيما ابتلاكم، فالله يريد أن يرفع درجاتكم.

7- تحمل البرد في طاعة الله مما يرفع الله به الدرجات، وما يختص فيه الملا الأعلى:

فالله سبحانه يُعظِّم المثوبة على من تحمل المكاره في طاعته؛ فمن أسباب محو الخطايا ورفع الدرجات: إسباغ الوضوء على المكرهات، كما جاءت بذلك الأحاديث، وملعون أن إسباغ الوضوء في شدة البرد، وكثرة الملابس على المتوضئ مما يكرههُ ويُشُقُّ عليه، لكنه يفعل ذلك قربة إلى الله تعالى، فاستحق ما رُتب عليه من أجر عظيم.

- عن أبي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ الدَّرَجَاتِ، وَيُكَفِّرُ بِهِ الْخَطَايَا؟ كَثْرَةُ الْخَطَايَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَإِنْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ) (رواه أحمد/9644، وإسناده صحيح على شرط مسلم).

وعَنْ أَبِنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (أَتَانِي رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّي وَسَعَدِيْكَ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِّ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: رَبِّ لَا أَرْبِي، فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَفَّيَ فَوَجَدَتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدَيِ فَعَلِمْتُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقُلْتُ: لَبَّيْكَ وَسَعَدِيْكَ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِّ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: فِي الدَّرَجَاتِ وَالْكَفَّارَاتِ، وَفِي نَفْلِ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكَرُوهَاتِ، وَإِنْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَمَنْ يُحَافظُ عَلَيْهِنَّ عَاشَ بِخَيْرٍ وَمَا بِخَيْرٍ، وَكَانَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيْوِمْ وَلَدَتُهُ أُمُّهُ) (رواه الترمذى/3234، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع/59).

وهذا الحديث من أحاديث الصفات التي نؤمن بها كما جاءت من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل.

8- نداء للقادرين:

إن الله ينزل المصيبة ابتلاء منه للمصابين أن يصبروا، وابتلاء للقادرين أن يذلوا،

- روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضَهُ بَعْضًا» وَشَبَكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ). (البخاري/2446، ومسلم/2585)

- عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ فِي الدُّنْيَا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنَ أَخِيهِ) (

فلينفس كل قادر عن المكروبين ما استطاع، من إيواء شخص أو عائلة أو يؤمن لهم ثمن الوقود والتدافئة أو يعطيهم ما فاض عن حاجته من ملابس وبطانيات، أو يعطيهم من المال ما يخفف عنهم من مصابهم، وإن الله سيسأل كل قادر على البذل ولم يبذل، ولنا في قول الله في الحديث القدسي عظة وعبرة :

(يا ابنَ آدَمَ اسْتَطَعْمُتُكَ فَلَمْ تُطِعْمُنِي فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطِعْمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمَيْنَ ؟ فَيَقُولُ: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا اسْتَطَعْمُتَكَ فَلَمْ تُطِعْمْهُ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عَنِّي ...) (الراوي: أبو هريرة المحدث: ابن حبان - المصدر: صحيح ابن حبان - الصفحة أو الرقم: 269).

المصادر: